

التركية في العامية المصرية

للدكتور حسين مجيب المصرى

من الحق قولنا إن لدراسة العامية من الأهمية ما لا يقل عن دراسة الفصحى ، وليس من المبالغة فى شيء أن نشير إلى كون تلك العامية أجدر باهتمامنا فى بعض الأحيان وما ذاك إلا لأنها لغة تخاطب كانت أو لغة أدب، منطلقة من القيرد والحدود صريحة الدلالة منبعثة من رغبة فى التعبير المستقيم، طيبة فى تأثيرها بما يمجج حولها . وهى فى هذا كله من صفاتها قد تكون على العموم أصدق فى دلالاتها وأعرق فى صراحتها من لغة الفصحاء التى ربما كان لها من قيودها ما ألزمها حدود نطاق لا تتجاوزه . فالعامية بهذه المثابة خير معبر عن روح الشعوب حين تمس حاجة الشعوب إلى ذكر ما يحزنها ويهيجها أو وصف مصائرهما أو التحدث حديثاً ينم عن المفصل من تاريخها والخاص من أمورها .

وعليه ، ينبغى لنا حين نهصدى لها كلغة تدور على الألسنة فى أحاديث القوم . ولغة يعبرون بها عن خواج النفس ويصفون الحياة بكيفية ينطقون فيها على سمجيتهم اللغوية وسمليقتهم التعبيرية . ونحن فى هذا المقام ناظرون إلى العامية المصرية من حيث تأثيرها بالتركية ليس إلا .

ونحن إذا ما ذهبنا لتلمس تاريخاً لبده التعارف بين المصريين والأتراك رغبة منا فى تصورنا لهم متعاشين مختلفين ، سبق من الفهم أن ذلك كان عام ١٥١٧م، حين فتح السلطان سليم الأول مصر . غير أن واقع التاريخ ينبئ هذا

الحسبان . فقد تعرف المصريون إلى الترك قبل ذلك بطويل زمان . وقدم
الترك ولاية للعباسيين على مصر . ومنهم يزيد بن عبد الله التركي الذي وليها
من قبل الخليفة المنتصر . كما وليها أزجور التركي ، والكندى صاحب كتاب
ولاية مصر يميز هذين الواليين بجنسيتها التركية . كما ولي المعتز ابن طولون
عليها سنة أربع وخمسين ومائتين . وهو تركي أصيل كما يستدل من اسمه —
فطولون بمعنى بدر التمام . وأسس بمصر دولة ظلت قائمة سبعة وعشرين عاماً
ثم استقلت بمصر دولة تركية أخرى هي دولة الأخشيديين وقد تسموا بهذا
الإسم نسبة إلى ملوك قرمانة والأخشيد لقبهم .

وحذا الفاطميون في مصر — ذو العباسيين في بغداد . فاستقدموا
واستخدموا الترك جنوداً وحراساً .

وهنا وقفة لابد منها مخافة أن يخرج بنا السرد التاريخي عما نحن بصدده
ولنطرح هذا السؤال وهو هل أثر هؤلاء الأتراك بلغتهم في لغة المصريين؟
والجواب على ذلك أن هذا جائز عقلاً وليس من الحتم أن يجوز واقفاً . كما
أنه يفضى بنا إلى سؤال آخر وهو ما إذا كان الترك الذين خالطوا العرب في
بغداد قد أثروا في لغة العرب .

ونحن لا نملك سنداً من تاريخ الإجابة على هذا السؤال . وأكبر الظن
أن هؤلاء الأتراك الذين دخلوا في دين الله أفواجا عرفوا العربية وكان حتماً
أن يعرفوها لغة لكتاب الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم . وإن
كان من المستبعد ألا يتحدثوا بلغتهم القومية ولو فيما بينهم .

ثم ينجلي هذا الغموض شيئاً ما فيما يتعلق بتأثير الترك في لغة المصريين
حين ندرك العصر الأيوبي . فنحن نعلم أن الأيوبيين أقبلوا الإقبال الشديد
على شراء الممالك واستعان صلاح الدين ونور الدين بجند من الترك . ولا
تلوهما الصالح نجم الدين أيوب فبنى لهم الشككنات في جزيرة الروضة .

ولكن لم يكن هؤلاء الأتراك بالمصريين خلطة إلا فيما ندر ، وشكلوا طبقة عسكرية منفصلة عن أهل البلاد ، وإن قيل إن التركية كانت لغة الحديث في قصر صلاح الدين ومعسكره وإن جميع مؤرخي تلك الدولة أطلقوا عليه اسم الدولة التركية وما هو ذا ابن النبية من شعراء الأيوبيين يحدثننا عن جمال الترك بقوله :

الله أكبر كل الحسن في العرب كم تحت لمة ذا التركي من عجب
كما طرقت نفس المعنى شاعر أيوب آخر وهو يقرظ ديواناً من الشعر
العربي لشاعر تركي فقال :

وكنتم أطن الترك تختص أيمن لهم إن رنت بالسكر فيها وأجفان
إلى أن أتاني من بديع قريضهم قواني هي السحر الحلال وديوان
أما في عهد المماليك فإن التركية أصبحت لغة القصر . وكان المصريون
يمقتون المماليك أشد المقت . وقلما جرى مع السنة هؤلاء كلام بالعربية .
وما أصهروا إلى أهل مصر إلا في الندرة .

ويستبين من هذا كله أن التركية كانت في القصور والمعسكرات ، ولغة
أهل الحول والطول من السلاطين والحكام وذوى البطش من أهل السيف .
فكان يدرؤها عن أهل مصر أبواب وحجاب . وربما كراهية تنفر منها
كما نفرت من أهلها .

وأياماً كان فلا يستقيم في الفهم ألا يكون قد تسرب إلى المصريين منها
ولا بعض مفرداتها .

ولوفوتنا قولنا إن هذه التركية لم تكن العثمانية التي نأنسها ونعدها الثالثة
من لغات الأدب الإسلامي .

وبعد الفتح العثماني ، انمعدت الصلات بين المصريين والأتراك
العثمانيين ، ولا نعرف بين هؤلاء وهؤلاء من العداة والمقت مثل ما نعرف
في عهد المماليك فلقد ذكر أحد الرحالة في القرن السادس عشر أن المماليك
يعايشون العرب كما يعايش الذئب الحمل ، ولطالما انتشب القتال بين العرب
والمماليك .

أما في عهد العثمانيين ، فتبدلت الحال غير الحال ، واستعان العثمانيون
بالعرب على تنظيم المجتمع المصري وبسط الأمن في ربوع البلاد . مما ينهض
دليلاً على أن العثمانيين كانوا على وفاق مع الجمع الغفير من أهل مصر . ومما
شك في مثل أن هذا التعاون لا بد موطد للصلات بين الأتراك وأهل مصر . كما
أنه يتيح للغة الحاكمين أن تؤثر في لغة المحكومين وتلك الحقيقة أقرب إلى
الفهم . ونصح تعليلاً لتسرب ما لا معنى كثرة من الألفاظ التركية إلى العامية
المصرية .

وعما يذكر أن تلك الألفاظ التركية لم تدخل لغة المصريين المصرية كما
كان الشأن في الفارسية التي يمر بها العرب فكانت جزءاً لا يتجزأ من متن
اللغة العربية ، بل إنه يجيء التركية في العامية كما هي وإن حرفة ألسنة
المصريين .

ولا نستحسن في هذا المقام أن نحاول إحشداً لتلك الألفاظ أو إحصاء
لأن ذلك كثير عتسع يطول شرحه ويسئم ذكره . فن الخير تقسيم تلك
الألفاظ أقساماً يستدل منها على شيء .

وأول ما نصادف منها أسماء الطعام والشراب . ففي العامية المصرية كثير
من أسماء الأطعمة . ونلاحظ أنها من ألوان الطعام الطيبة الفاخرة في الأغاب
مثل أوزى وهي في التركية توزى بمعنى الحمل وكندوز من أوكوز بمعنى
الثور . أما كباب وكوفته فلفظان فارسيان وثالثهما موزة وهي في الفارسية

مازو ، ومن صنوف الخضر ما يعرف بالقللى وهو من تورلو تورلو فى التركية
بمعنى التنوع ، والضوامة . وهى طوامة بمعنى الممتلىء أو الحشو . أما الحلوى
فإنها الشكامة وأصلها شكرمة . والخشاف كلمة فارسية بمعنى الماء اللذيذ وقد
انتقلت من الفارسية إلى التركية ومنها إلى العربية .

وحسبنا هذا القدر من الأسماء الذى يستدل منه على أن العثمانيين يهتمون
بطعامهم . وهذا ما نعهد إلى اليوم . فمن يزر استانبول يلحظ كثرة المطاعم
وحواريات الحلوى فيها .

كما ندرك من هذا . أن الحكام وذوى اليسار من العثمانيين فى مصر عرفوا
أهلها صنوفاً خاصة بهم . وكثيراً من أدوات الطهو مازالت إلى اليوم بأسمائها
التركية .

ونما يعرف عن الترك ميلهم إلى جمال الفنون وروعتهما ، وحسبنا أن نذكر
ترحيل السلطان سليم لمهرة الصناع المهرين إلى استانبول ليفيد الترك من
حذقهم فى فنونهم . وهذا يذكرنا بلا حقة فى العامية المصرية وهى (جى)
فإنها فى التركية تفيد معنى صاحب الحرفة أو الفن .

أما الملابس . فمازالت بعض أسمائها تركية ، ومن تلك الأسماء ما اندثرت
هسيبانها اليوم مثل (جنتيان) وهو نوع من السراويل تلبسه الفلاحات .
واذكر أنى سمعت هذه الكلمة منذ خمسين عاماً فى أغنية من أغاني الحاجات .
فهل كانت الفلاحة المصرية تلبس هذه السراويل أو أنها كانت خاصة بحاجة
تركية ومنها الضنرى وهى فى التركية انتارى وهو نوع من القمصان ، ولكنها
فى العامية المصرية مبتذلة . ومن الألفاظ ما بقيت على تركيبها وما لها من بدل
مثل (أويه) وهى حلية يزودان بها ما تستر به بعض النساء رءوسهن . أما
الطربوش وأصله فى الفارسية مريوش بمعنى غطاء الرأس . فكان خاصاً
بالنساء وقد وردت هذه الكلمة فى شعر بالتركية العامية للشاعر واصف

الأندرولى المتوفى ١٨٤٥ م ، وفيه يجرى الكلام على لسان أم تنصح ابنتها
بالأ تخيط الأزارار فى طربوشها لأن ذلك يخرجهما من أصول الحشمة .

ومن الألفاظ التركية ما هو مشتق من العربية غير أن له مدلولاً خاصاً
ليس له فى العربية مثل (حرامى) بمعنى اللص وهذا اللفظ مهجور فى لغة الترك
ولم يكنه باق فى العامية المصرية فكأنه مات فى التركية ليحيا فى العربية .

أما كلمة بقميش وهى فى الفارسية بخشش بمعنى الهبة والعطاء . فقد
مأنت فى الفارسية لتحيا فى التركية والعامية المصرية . ومن الألفاظ التى تتوهمها
عربية وهى تركية كلمة عربية ، فلا وجود لها فى معاجم العربية لأنها إرأبا
فى التركية . وهى تذكرنا بكلمة حنتور وهى تركية مأخوذة من
المجرية Hinto .

ومن الألفاظ التى هجرت فى الفارسية وانتقلت منها إلى التركية (دستور)
وهى لا تستخدم الآن فى التركية وإن بقيت فى العامية المصرية بمعنى الإذن.
والإذن فى حال خاصة عند الرغبة فى التعبير عن الرجاء والاعتذار .

ومن المستطرف أننا لانعدم الألفاظ التركية فى كلام أطفالنا . فهم حين
يلعبون بالسكرات الصغيرة المعروفة بالبلى يقول البادىء باللعب أنا البرم .
من بر فى التركية بمعنى أول . كما أن الصغار إذا أرادوا العبث بالحمار الناهق
قالوا له زر . وهى الأمر فى التركية من المصدر زارلق بمعنى النهيق . أما
الالفا ، وهو رئيس التلاميذ فى الفصل فهو الصيغة التركية لقلما أو خليفة بمعنى
من يخلف المدرس .

أما أسماء الاعلام فى مصر فتأثرة بالتركية إلى حد بعيد فكل اسم ينتهى
بتاء مفتوحة مثل حكمت ونصت وبهجت هو فى صيغته التركية .

وحسبنا هذا القدر من الألفاظ التركية التى لاندجت فى العامية المصرية .

وانشر إلى أثر التركية في الأدب الشعبي عند أهل مصر ونذكر أول ما نذكر
تلك الأغاني التي تغنيها الأم لطفلها وهي تسكنه وتهديه لينام . وهذا النوع
من الأغاني كثير في العامية المصرية كثرت في التركية . والأرجح أن يكون
أهل مصر قد عرفوه من الترك في التركي والعربي من هذه الأغاني كلتان
تترددان في كل أغنية وهي (هو) من أسماء الأصوات و (ننى) وهو اسم تلك
الأغنية في التركية المشتق من (نانو) في الفارسية وهذا ما أدخل على العامية
المصرية فعلا هو (يهنن) بمعنى أن تغنى الأم لصغيرها حتى ينام .

ومن الدليل على أن المصريين كانوا يعلمون بوجود هذه الأغاني عند
الترك ويتأثرون بها تلك الأغنية .

ننه ننه بالتركي

ننه ننه بالعربي

يا الله تنام يا الله تسكت

وادبح لك جوزين كشكت

وهذه الأغاني على سذاجتها تعبر عن الأفكار الشائعة والتقاليد المتوارثة .
فعلوم أن عوام المصريين يفضلون أن يولد لهم ولد على أن تولد لهم بنت .
وهذا ما تؤكد الأغنية التي تقول الأم فيها :

لما قالوا دى بنينه

لنهد ركن البيت على

كما قالوا ده ولد

أشد ضهرى واسند

و نحن نصادف ألفاظاً تركية في تلك الأغاني المصرية .

ومن الأغاني الشعبية ما يعرف بالموال . وقد وصف الشاعر التركي فاضل بك في القرن الثامن عشر امرأة مصرية تنغنى به . والمتبادر إلى الذهن أن الموال من المواليا وهي نمط من الشعر العامي عرفه العرب في العصر العباسي غير أن القواميس التركية تنص على أن الكلمة تركية .

ومن الأدب الشعبي عند الترك والمصريين ما يعرف بخيال الظل ، وينعقد إجماع المؤرخين على أن الترك في آسيا الشرقية أخذوه عن الصين . والصين أهل مهارة في الصناعة .

فكانوا يرسمون على قماش أو ورق صوراً للإنسان والحيوان حتى يتكون ستار مزدان بالصور والنقوش ثم يلف بهذا الستار ما يشبه مصباحاً كبيراً موقداً فتبدو صور الستار ، ثم يدار المصباح حول نفسه لتعاقب الصور أمام المشاهدين .

وفي رأى أن العثمانيين عرفوا خيال الظل أول ما عرفوه في عهد السلطان أدرخان عام ١٣٥٩ م ، وفي رأى آخر أنهم أخذوه عن المصريين . ويقال عن السلطان سليم بعد قتله طومان باى أنه استدعى خيالياً وأمره أن يمثل صلب طومان باى على باب زويله وأعجب السلطان كل الإعجاب بما شاهد وشاء أن يصحبه ذلك الخيال إلى استانبول ليدخل البهجة على نفس ولده الأمير سليمان القانوني خبير ستمائة من هؤلاء الخياليين الذين استقدمهم أبوه من مصريين البقاء في تركيا والعودة إلى مصر . ويعتمد بعض الباحثين على هذا الخبر في إثبات أن الأتراك عرفوا خيال الظل من المصريين .

ولكن الجدير بالذكر هو أن هذه المعروضات أو التمثيلات كانت تشرح بالعربية والتركية وشخصياتها من الشعبيين المصري والتركي . وهذا ما ينطبق

على ما يعرف بالقره كوز أو مسرح العرائس . وقيل إن الحوار بين القره كوز وغيره من الشخصيات كان يدور بالعربية والتركية في عصر محمد علي . وهذا يؤكد أنه كان يتيح للمصريين أن يتفهموا بعض ما يسمعون بالتركية . وتلك وصلة ولا شك بين اللغتين أو أحدها ذلك المفعن الشعبي . وليس بمستبعد أن يكون بعض المصريين قد تلقنوا شيئاً من التركية بمشاهدة هذه التمثيليات وعرفوا أن ألفاظها ماضمنوها لغتهم العربية وأجروها على ألسنتهم ومنذ أربعين عاماً أنظم أحمد شوقي أغنية باللغة الدارجة بعنوان (بلبل حيران) وفيها يتمثل البلبل عاشقاً للوردة يعبر لها عن هواه ويثأر شكواه . وما من ريب في أن هذا الشاعر إنما عرف ذلك من قراءة له في الأدب التركي القديم أن البلبل يعشق الوردة ولا يغنى إلا إلى جانبها . وشعراء الصوفية يرمزون بذلك إلى وفاء المعاني وخفي الرموز .

وغير شك أن التركية بعد انسراجها في عامية المصريين أدخلت عليها كثير من الألفاظ الفارسية التي شكلت السكثرة السكثرة من ألفاظها . فلما أن نقول إن لغة المصريين أصبحت مظهرأ لالتقاء اللغات الإسلامية الثلاث في لغة واحدة . ولعله المظهر الأهم الأوضح لاتحاد المسلمين في تفكيرهم وتعبيرهم وشعورهم المتجلى في أدبهم الفصيح والشعبي كتجليه في لغتهم الفصحى والعامية .

ونذكر في ختام هذا المقال كلمتين تجريان على لسان الطفل إذا جاع وظمى . فهو يقول (مم ، وهي كلمة تركية) بمعنى الطعام . ويقول (امبو) وهي كلمة مصرية قديمة بمعنى ظمآن . وكأن كلمتيه مصرية أصيلة وتركية دخيلة تدوران وهما متلازمان في أول ما يجري له من الكلام على اللسان .